عسكر المسترشد بالله في العهد السلجوقي

بقلم
عادل محيي الدين

يجد الباحث في الكتابة عن الجيش صعوبة بالغة بسبب ندرة النصوص التي قد تذكر بصورة عرضية دون الاشارة الى عناصره واصنافه واعداده وعدته وتنظيماته التعبوية والقتالية وخاصة في الحكم السلجوقي ، الذي جعل من الخلافة العباسية منصبا ثانويا لا حول ولا قوة له في كثير من امور الحياة منصبا منصبا ثانويا لا حول ولا قوة له في كثير من امور الحياة عدا النواحي الدينية التي اخفى السلاطنة وراءها اغراضهم ومطامعهم الشخصية .

لقد تداعت مؤسسات الدولة في ظل هذا التسلط الاجنبي، والجيش واحد من تلك المؤسسات المتداعية ، ولكن هذه المؤسسة قد استعادت بعضا من قوتها وتنظيمها وهيبتها في عهد الخلفاء العباسيين الثلاثة ، المسترشد بالله والراشد والمقتفى ، حتى سميت هذه الفترة بفترة « التخلص من النفوذ الاجنبي » ، بدأها المسترشد بالله فقاد الجيش بنفسه ودخل الحروب والمعارك واحرز في اغلبها النصر . ومع ان المسترشد بالله لم يوفق في تحقيق ما طمحت اليه نفسه في الاستقلال وتوحيد بلاده والتخلص من النفوذ السلجوقي ، الا انه كان بحق رائدا لحركة التخلص من ذلك النفوذ .

الجيش في ظل النفوذ البويهي

بمجيء البويهين ٣٣٤هـ ، انحلت مؤسسات الدولة وتداعى النظام الاداري العباسي ، فالخلافة العباسية اصبحت منصبا رفيعا ليس الا ، يتقاضى صاحبه راتبا او موردا يسد به حاجاته ، فقد جعل الامير معز الدولة للمستكفي بالله خمسة الاف درهم في اليوم ثم خفض هذا المرتب الى الفي درهم في خلافة المطيع(١) ، في حين اقطع بعضهم اقطاعيات يسيرة يعيشون من مواردها بدل الراتب(٢) .

والجيش باعتباره جزءا من تلك المؤسسات ، فقد اهميته واستعيض عنه بالجيش البويهي الذي اصبح مدافعا ليس فقط عن البويهيين بل عن الدولة العباسية ايضا .

لقد منع الخليفة من تكوين الجيوش والاتباع ووضع تحت مراقبة البويهيين مباشرة فقلما نجد مجلسا للخليفة يجتمع فيه الناس الا واحد عيون البويهيين فيه يتلقف اخباره واخبار الناس .

ولم يسمح للخليفة الا بعدد من الجند يشكلون حرسه الخاص ، فقد ذكر ابن الجوزي (٣) : انه في عام ٣٦٩هـ اقيم حفل بمناسبة تجديد العهد للامير عضد الدولة ، جلس الخليفة الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف من عسكره واقفين بين يديه وامامه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد سيف الرسول الاعظم . مما يدل على ان الخليفة العباسي احتفظ بعدد من الجند يتناوبون حمايته في حله وترحاله. ومن الجدير بالذكر ان البويهيين قد اوجدوا جيشا مؤلفا من المرتزقة من مختلف الشعوب ، وجعلوا له عارضين اي قائدين . احدهما لجند الديلم والآخر للجند المختلط (٤) .

محاولات التخلص من النفوذ السلجوقي

عم الدولة العباسية اضطراب لا مثيل له في السنوات الاخيرة لحكم البويهيين ابان حركة البساسيري(٥) وعجز الخليفة المغلوب على امره من القيام بعمل ما وليس بيده جيش او قوة يمكن الاعتماد عليها ضد التسلط التركي الذي افقد الخلافة العباسية هيبتها وقدسيتها ، فقد اسر الخليفة القائم بامر الله في (عانه) وراسل السلطان طغرلبك السلجوقي سرا يستنجد به وانجده بجيش تمكن من تخليصه واعادته الى بغداد(٦) . وفي عهد السلاجقة ٤٤٧هـ اصبحت السلطة العباسية جزء من السلطة السلجوقية ولم يبق له الا المركز الديني ، وحدد للخليفة اقطاع معين يصرف من ايراده واجبر العباسيون على ان يفوضوا السلطة الى السلاجقة كليا ، ففي احتفال مهيب فوض الخليفة القائم بامر الله السلطة للسلطان طغرلبك قائلا له « امير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفضلك زائد الشغف بك وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى في بلاده ورد اليك فيه مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ... » (٧)

ازاء ذلك كله فقد حددت تحركات الخلفاء ومنعوا من الاحتكاك بالناس مباشرة ولم يجرأ احد منهم على تاليف جيش من اتباعه او قوة يعتمد عليها لفرض سيطرته وتثبيت سلطته الا في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي بمجيئه بدأ الكفاح من اجل استرداد هيبة الخلافة والعمل على التخلص من الحكم السلجوقي، فقد قال المسترشد بالله « فوضنا امورنا الى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (٨)

لقد عمل المسترشد على خلق جبهة قوية معادية للغزو السلجوقي وذلك بجمع كل من يعادي السلاجقة في جيش هدفه

الاول الحد من سلطة السلاجقة وبالتالي التخلص منهم ، فقد حاول الاتفاق مع دبيس امير المزيدين في الحلة الا ان دبيس كان ثعلبا مراوغا لا يؤمن جانبه لذلك جرد المسترشد بالله سيفه وقاد جيشه الكبير وقد احرز الانتصار ، فكانت هذه الحرب بالنسبة للمسترشد تجربة رائدة اظهرت قوته وابرزت مقدرته العسكرية ولوحت ولو من بعيد للسلاجقة بان هذه القوة المتمثلة في الخليفة الجديد خطر عليهم ، من ذلك ما قاله يرنقش الزكوي شحنة بغداد للسلطان محمود من ان الخليفة قد قاد العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ازداد قوة وجمعا .... الخ (٩) . واقتصد المسترشد بالله في جميع الاموال وفرض الضرائب وحصر جل نفقاته على الجيش لاكثار عدده وتقوية عدته وسلاحه ومن ذلك محاولة فتح الموصل عام ٥٢٧هـ لبسط نفوذه وسلطته .

اخذ المسترشد يستعد لطوارىء الحرب ضد السلاجقة وبدأ ببناء السور (سور بغداد الشرقية) الذي يعتبر من الاعمال الجليلة للخليفة المسترشد بالله لحماية بغداد من الغارات والاعتداءات الخارجية(١٠) ، كما انه حاول ان يبذر روح الشقاق والخصومة بين سلاطين السلاجقة انفسهم بقصد اضعافهم وكسر شوكتهم . ان حروبه مع دبيس والسلطان محمود وحصار الموصل اعطت الدليل على ان الخلافة زمن المسترشد قد اعادت بعضا من سلطتها ومكانتها وهيبتها وحيويتها ونشاطها فلاول مرة يخرج الخليفة العباسي على رأس جيش يقوده بنفسه خارج العاصمة بغداد(١١) .

ومع ان الراشد بالله ٥٢٩هـ يحمل فكرة العداء للسلاجقة وفكرة التخلص منهم الا انه كان اقل نصيبا من ابيه ، فقد تحالف مع الملك داود وزنكي لحرب السلطان مسعود يساعده في ذلك العوام من اهل بغداد الذين ثاروا محتجين قبيل دخول السلطان مسعود بغداد ولما ترك الراشد بغداد قاصدا الموصل احرز نصرا مؤقتا على جيش السلطان مسعود الا ان المناورة السياسية جعلت الراشد وحيدا في جماعة من العساكر العجم فاتجه الى اصفهان وهناك لقي حتفه(١٢) .

اما المقتفي فمع ان السلاجقة هم الذين نصبوه خليفة بعد خلع الراشد بالله الا انه انتهج سياسة هادئة واتخذ خطوات ناجحة مستغلا في ذلك المنازعات والمخاصمات التي استعرت بين امراء السلاجقة ، فاخذ في تقوية مركز الخلافة وعمل على تقوية الجيش الذي وجد فيه الوسيلة لنيل الاستقلال ، فكان يستعرض مرات عديدة ، ويتعرف على مشاكل الجند ويمهد لهم وسائل العيش ويهيء لهم العتاد والسلاح ثم انه امر بحفر الخنادق حول بغداد وحول المناطق المهمة فيها ، واستنفر العوام من اهل بغداد لحمل السلاح وجعل منهم عسكرا منظما يمكن الاعتماد عليه عند الضرورة والطوارىء(١٣) وامر باصلاح السور وقد اصلحه العوام من اهل بغداد الذين خرجوا بالالات وحفروا الخندق حول المدينة . (١٤)

اقسام الجيش العباسي

اتبع العرب في جل معاركهم ما يسمى بنظام الخميس(١٥) ، الذي يعني تقسيم الجيش الى خمسة اقسام مؤلف من القلب في الوسط وهو محل الخليفة او الامير ومقر القائد العام وحاشيته ، والجناحين الايمن والايسر ويقود كل منها احد القواد المساعدين وفيها الخيالة بالدرجة الاولى ، ثم المقدمة في الامام ومنها ترسل الطلائع للاستكشاف ، ثم الساقة او المؤخرة في الخلف لحماية الجيش وفيه عادة جند عرفوا بالصبر والثبات وفيها ايضا الامتعة والمؤنة وبعض عوائل الجند والحيوانات . (١٦)

استمر هذا التقسيم متبعا في مختلف فترات الحكم الاسلامي الراشدي والاموي والعباسي ولكن في العصر السلجوقي قسم المسترشد جيشه الى بعض تلك الاقسام ، ففي حربه مع دبيس بن صدقة امير المزيدين في الحلة ٥١٧هـ قسم جيشه الى ميمنة وميسرة وساقه(١٧) فقد جعل عمادالدين زنكي والامير ابا بكر الياس البكجي على ميمنة الجيش(١٨) ، وعلى الميسرة الامير كرباوى بن خراسان (١٩) وعلى الساقة سليمان بن مهارش(٢٠) . اما الخليفة فقد وقف في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء بين يديه والمصاحف منشورة في ايدي اهل بغداد(٢١) .

وجدير بالذكر ان الامير اق بوري قد وقف على كمين مؤلف من خمسمائة فارس انقضوا على عسكر دبيس عند اشتداد المعركة من الخلف فكان لها الفضل في احراز الانتصار ، اما البرسقي الذي عهد اليه تعبئة الجيش والاشراف عليه فقد وقف في الميمنة على نشز من الارض ليشرف على المعركة(٢٢) .

وفي حرب الخليفة المسترشد بالله مع دبيس بن صدقة وصاحبه عمادالدين زنكي عام ٥٢٦هـ قسم جيش الخليفة تقسيما محكما فقد جعل جمال‌الدين اقبال على ميمنة العسكر ونظر الخادم على ميسرته ووقف المسترشد من وراء الجند في خاصته والسيف بيده . (٢٣)

وفي اخر حروب المسترشد بالله مع السلطان مسعود عام ٥٢٩هـ قسم الخليفة جيشه الى ميمنة جعل فيها يرنقش بازدار ، ونور الدولة سنقر،وقزل اخر،وبرسق بن برسق(٢٤)، وعلى الميسرة جاولي وبرسق شراب(٢٥) في حين وقف الخليفة على فرسه في القلب اي في وسط العسكر ، فلما التحم القتال غدرت ميسرة الخليفة ومالت الى عسكر السلطان التي دارت حول عساكر الخليفة وهو ثابت في مكانه ممتطيا جواده الى ان أسر(٢٦)

وللجيش العباسي اصناف منها الفرسان وهم الخيالة وقد عول عليه المسترشد في جل حروبه ففي عام ٥٢٨هـ بلغ عددهم خمسة عشر الف فارس(٢٧) ، وفي حرب عام ٥١٧هـ ضد دبيس ترك الخليفة مجالا بين صفوف الجيش لمرور الخيالة(٢٨) والصنف الاخر هم الرجالة اي المشاة ويتسلحون بالسيوف والحراب والرماح والقسي والسهام ويلبسون الدروع(٢٩) ، وامراؤهم يركبون الخيل وقائد الرجالة لا يكون الا فارسا ولابد من وجودهم في كل جيش يدخل معركة انذاك ، فقد كانوا في حرب المسترشد بالله مع دبيس ٥١٧هـ خمسة الاف راجل(٣٠) .

وهناك اصناف اخرى كالنشابين الذين يرمون النشاب ويسمون بالنشابة(٣١) ، والعيارين الذين يرمون الحجارة من المقالع والمخالي(٣٢) والمهندسون ويسمون بالفعلة وكذلك السقاة واصحاب المؤنة والطعام ومن يتولون الاسعاف والتطبيب وتضميد الجرحى(٣٣) ومن ذلك سرايا الاستطلاع التي تكون في مقدمة الجيش وجلهم من الخيالة ففي عام ٥٢٩هـ امر المسترشد اصحابه بالخروج واخرج نوبيته فضربها عند الثريا وتقدم بعض الجند فكانوا بمثابة مقدمة لجيش الخليفة . (٣٤)

رتب الجند

بلغت الرتب العسكرية غاية تنظيمها في العصر العباسي ، وكانت تخلف من عصر الى اخر ، ولكن الشائع هو ان الجندي ادنى الرتب العسكرية وان امير الجيش او القائد الاعلى هو اعلى

الرتب وفي بعض الاحيان يتقلدها الخليفة بنفسه كما حدث في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي قاد الجيش العباسي بنفسه على طول الخط(٣٥) وهدفه من ذلك هو رفع معنويات الجند وتحقيق هدف الاستقلال والتخلص من النفوذ السلجوقي فالخليفة هو القائد الاعلى للجيش وتحت امرته كل المراتب والاجناد ويليه مساعد القائد العام وعارض الجيش الذي هو بمثابة رئيس اركان الجيش ، ويوكل اليه الخليفة مهمة تعبئة العسكر والاشراف على سير المعركة ، وقد تولى هذا المنصب في حرب الخليفة ضد دبيس عام ٥١٧هـ البرسقي الذي امره الخليفة بتعبئة العسكر(٣٦) والاشراف على سير المعركة فوقف على نشز من الارض ليتسنى له متابعة القتال(٣٧) .

ويلي العارض مساعدين برتبة قائد احدهما يكون على الميسرة والاخر في الميمنة ، وهناك رتبة المقدم الذي يتولى قيادة فرقة معينة تابعة له ، ففي حرب المسترشد مع السلطان محمود ٥٢١هـ كان سليمان بن مهارش على رأس عسكر بني عقيل والبرسقي على عسكر البكجية ابناء جنسه وجماعته وعمادالدين زنكي قائدا على عسكره من الذين جاء بهم منواسط(٣٨) ، وكانوا في جيش المسترشد اكثر من واحد وذلك لانه على كل جماعة او قبيلة مقدم يتولى امورهم العسكرية (٣٩) ، وقد يرقى المقدم الى رتبة قائد او عارض تبعا لرغبة الخليفة ، فامر التسمية والتولية موكل به .

ومع ان المصادر العربية لم تذكر الرتب الاخرى التي تلي ما ذكرت الا انني ارجع وجود رتب اخرى كالنقيب الذي يتولى عشرة او اكثر من العرفاء ومن ثم الجند الذين قسموا على شكل عشرات على كل واحدة عريف او مشرف .

التعبئة ونظم القتال

استفاد الخلفاء من التراث العسكري العباسي وطبقوا بعض تلك النظم كنظام الكر والفر اي الهجوم بسرعة والانسحاب بسرعة وتكرار عملية الهجوم عدة مرات حتى النصر(٤٠) واتبع الخليفة المسترشد بالله نظام الصفوف في تنظيم عسكره ففي حربه مع دبيس ٥١٧هـ عبا عسكره على شكل صفوف وجعل بين كل صفين مجالا للخيل(٤١) .

اما التعبئة فقد كانت تجري وفق نظم معينة وهي لا تدخل في الجيش وحده بل ان مظاهرها كثيرا ما تتعداه وفي هذه الحالة تشمل كل ما يتخذه الخليفة قبل بدء المعركة وتحرك الجيش وتجميع الاجناد ، ففي حرب عام ٥١٧هـ لما صمم المسترشد بالله على مقاتلة دبيس بن صدقة برز الخليفة من بغداد واستدعى العساكر فاتاه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في عقيل وقرواش بن مسلم وغيرهما ، وامر الخليفة فنودي في بغداد لا يتخلف من الاجناد احد ومن احب الجندية من العامة فليحضر فجاء منهم خلق كبير وبعد ذلك اخرجت خيام الخليفة والعسكر ونودي النفير النفير الغزاة الغزاة ثم ان الخليفة عبر دجلة وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني ونزل الخيام ومعه كبار رجال الدولة وبالقرب من نهر الملك استدعى الخليفة الامراء واستحلفهم على المناصحة في الحرب (٤٢) . وفي حرب الخليفة مع السلطان محمود ٥١٩هـ خرج المسترشد بالله من السرادق والشمسة على رأسه والوزير بين يديه وامر بضرب الكوسات والبوقات ونادى باعلى صوته بآل هاشم وامر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة(٤٣) .

ولما اراد الخليفة غزو الموصل ٥٢٧هـ رحل في شبارة اي سفينة وكان على صدرها يرنقش البازدار قائما بيده سيف مشهور واق سنقر قائما بين يديه وفي الشبارة صاحب المخزن وغيرهم من رجالات الدولة(٤٤) ، ثم عبر الكوسات والاعلام من الجانب الشرقي الى الجانب الغربي ونودي في الجانب الشرقي من تخلف من الجند بعد يومنا هذا ولم يعبر ابيح دمه(٤٥) .

وفي عام ٥٢٨ هـ يوم عيد الفطر استعرض الخليفة جنده وعسكره « ونودي لا يختلط بالعساكر احد من العوام ومن ركب بغلا وحمارا في هذا اليوم ابيح دمه فما تجاسر احد ان يفعل ذلك وخرج رجالات الدولة في زي لم ير مثله من الخيل المجفجفة والعسكر اللابس والعدة الحسنة » (٤٦) .

وفي سنة ٥٢٩هـ لما عزم على حرب السلطان مسعود تقدم الخليفة الى اصحابه بالخروج وركب هو على سفينة كان فيها البازدار وبيده سيف مجذوب وقزل بين يديه وتحيط بسفينة الخليفة سفن الناس والامراء والخدم شاهرين السيوف وعند الدكة مشى الخليفة والناس كلهم بين يديه الى ان دخل السرادق (٤٧) .

كل هذا كان يجري قبيل بدء القتال لاظهار عظمة الخليفة وجنده ولادخال الرعب في صفوف الاعداء ولرفع معنويات عسكره . وفي بعض المعارك المهمة يسير الخليفة مع الجيش ويكون مركزه عند ذلك في القلب وسط الجيش فاذا ما استقر الجيش في مكان تختاره عادة سرايا الاستطلاع ياخذ الجيش في مقر الخنادق عند الضرورة فاذا وصل الجيش الرئيس نصبوا خيامهم واقاموا الشوارع والاسواق والميادين وفي اوقات الصلوات يؤم الخليفة الجند في الصلاة وبعدها يجلس الجميع في حلقات يرددون الدعاء بالنصر ويتجاذبون قصص الحروب والمخاطرات وينشدون القصائد الحماسية . (٤٨)

هكذا جرت العادة قبيل كل حرب . وقبل بدء المعركة يجلس الخليفة او يركب جواده وعليه الرمح والدرع والخوذ وبيده السيف كانه في استعداد للحرب فينادي باسماء القواد والامراء وياخذ العهد منهم كما فعل المسترشد في حرب دبيس ٥١٧هـ اذ ان الخليفة استدعى البرسقي والاجراء واستحلفهم على الطاعة والمناصحة في الحرب(٤٩) . وفي بعض المعارك المهمة يستعرض الخليفة جنده وهو راكب على جواده ويتفقد احوالهم ويقوي عزائمهم .

وفي المعارك كان عسكر الخليفة يعبا على شكل صفوف من المشاة بين كل صف واخر مجال يقف فيه الفرسان والخيالة(٥٠) ويقسم الى ميمنة وميسرة وساقة وهي مؤخرة الجيش اما الخليفة فيقف عادة من وراء العسكر ممتطيا جواده ليشرف على سير المعركة ومعه حاشيته والقراء بين يديه يرتلون القرآن ويدعون له بالنصر(٥١) .

لقد كان لوجود الخليفة بين عسكره اثر كبير في حماس الجند واستبسالهم في القتال « ففي حرب ٥١٧هـ ولما حمى وطيس المعركة جرد الخليفة سيفه وكبر وتقدم الى الحرب ومعه كل الجند » (٥٢) وفي حرب المسترشد بالله مع عمادالدين زنكي وحليفه دبيس بن صدقة ٥٢٦هـ كاد عسكر الخليفةان ينهزم « فاذا بخيمة سوداء قد نصبت عند المعركة وخرج المسترشد بالله فيها راكبا بسواده وبيده سيف مسلول فكانت الهزيمة لجيش الاعداء » (٥٣) . وفي مرات اخرى كان يقف الخليفة على فرسه في قلب جيشه شاهرا سيفه يشجع المقاتلين (٥٤) ، واتبع المسترشد بالله في بعض حروبه اساليب المفاجئة والمباغتة وتوزيع

الكمائن كالذي فعله في حربه مع دبيس ، فقد وضع كمينا فيه خمسمائة فارس وجعل عليه الامير اق بوري وكان لهذا الكمين اثر واضح في توجيه المعركة لصالح الخليفة بعد ان اشرفت عساكره على الهزيمة(٥٥) .

عناصر الجند العباسي

تألف الجيش العباسي بصورة عامة من فئتين : (٥٦)

الفئة الاولى : المرتزقة وهم الجند النظاميون الذين سجلوا في ديوان الجند من اهل الفيء والجهاد ، ويستدعون عند الطلب ، والفئة الثانية هم المتطوعة الخارجون عن الديوان ممن يدخل الجيش حبا في الشهادة او طمعا في الاسلاب والانهاب والغنائم وكثير منهم ممن دخلوا الاسلام من العناصر غير العربية .

اعتمد جيش المسترشد بالدرجة الاولى على اهل بغداد وخاصة العوام فهم الذين وقفوا الى جانب الخليفة العباسي رغبة منهم في التخلص من الحكم السلجوقي مع ان الاوضاع الاقتصادية السيئة والضرائب الفادحة قد اثقلت كاهلهم ولكنهم كانوا يعزون هذا الى وجود السلاجقة اذ لولا نفوذهم وتسلطهم على امور الدولة لما عمد المسترشد الى تكوين الجيش وصرف المبالغ الطائلة عليه وتركيز اصلاحاته على الناحية العسكرية دون الالتفات الى جوانب الحياة الاخرى ، واهل بغداد خليط من اجناس مختلفة عربية وغير عربية ، ذكر ابن الاثير(٥٧) انه في حرب ٥٢٩هـ وبعد انتهاء القتال وهزيمة الخليفة نودي بامر السلطان مسعود من تبعنا الى همذان من البغاددة قتلناه فرجع الناس كلهم على اقبح حال .

ومن عناصر الجند الى جانب اهل بغداد اهل السواد الذين جاءوا من الحلة وواسط والبصرة ففي حرب المسترشد بالله مع السلطان محمود عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من اهل بغداد والسواد (٥٨) وواسط ، وكان يتولى قيادة جند واسط الذين كانوا مع جيش الخليفة عمادالدين زنكي(٥٩) .

وهناك عنصر اخر اشترك في معظم جيوش الخليفة وهم الاكراد ومعظمهم في الشمال وبسبب خدمتهم في الجيش العباسي نزح بعضهم الى الحلة وبغداد وواسط وتكريت وخاصة في منطقة البوازيج على مقربة من تكريت وبعضهم سكن البصرة(٦٠) ولما انحل امر الخلافة بدخول السلاجقة اغار بعضهم على القرى القريبة من بغداد(٦١) ففي حرب المسترشد بالله عام ٥٢١هـ كانوا مع عسكر الخليفة بامرة صاحب اربل الهيجاء الكردي الهذباني(٦٢) . وفي حصار الموصل ٥٢٧ هـ حضر الامير عيسى الحميدي امير قلاع الاكراد الحميدية في جنده وجموعه من الاكراد لمساعدة الخليفة العباسي(٦٣) .

اما عددهم فانه يتفاوت من معركة الى اخرى تبعا لمكان المعركة، ففي عام ٤١٥ هـ كان الاكراد مع ابي الفوارس عشرة الاف مقاتل (٦٤) .

وهناك عنصر آخر لعب دورا بارزا على مسرح السياسة العباسية منذ قيامها وهم الاتراك ، فقد زاد عددهم في الجيش العباسي عام ٥١٧هـ على الخمسة الاف الاجناد وكانوا بامرة البرسقي وقد احتلوا ميمنة العسكر (٦٥) ، وفي اخر حروب الخليفة المسترشد بالله « كان منهم عدد كبير في عسكره » الا انه لما تراءى الجمعان اي عسكر الخليفة وجيش مسعود حال الجنس الى الجنس فمال الترك الى الترك وتفرد الخليفة مع مفرديه وخواصه » (٦٦) ، مما يدل على وجودهم في كلا العسكرين المتحاربين وجدير بالذكر ان الاتراك قد لقوا عناية فائقة من الخلفاء العباسيين المتاخرين ومن الامراء القواد فالجندي منهم اول ما يعلم الكتابة وقراءة القرآن على يد الطواشي وقد يعلمون شيئا من الفقه فاذا صار الى سن البلوغ اخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب ولعب الرمح وغيرها من فنون الحرب وبعد ذلك ينتقل في اطوار الخدمة رتبة بعد رتبة حتى يصير من الامراء(٦٧) ، وقد وجدوا باعداد كبيرة في عسكر الدولة العباسية ووصفوا بالشجاعة من ذلك قول ابراهيم عثمان الذي توفى عام ٥٢٤هـ وهو يصفهم : (٦٨)

في فتية من جيوش الترك ما تركت
للرعد كراتهم صوتا ولا ميتا
قوم اذا قوبلوا كانوا ملائكة
حسنا وان قوتلوا كانوا عفاريتا

وهناك عناصر اخرى وجدت في جيش المسترشد بالله منهم بنو عقيل وكانوا تحت امرة سليمان بن مهارش صاحب الحديثة(٦٩) ، وفي اخر حروب الخليفة اضيف الى عسكره عنصر جديد من الجند وهم الغلمان الدارية وقد جعلوا في صحيفة الجيش(٧٠) والظاهر انهم كانوا يتولون حراسة دار الخلافة وقد استدعاهم الخليفة لاهمية هذه الحرب .

عدد الجند

ليس من السهل على الباحث ان يحدد اعداد الجند الذين استعملهم الخليفة المسترشد بالله وذلك لعدم وجود ثبت يعتمد عليه ، فحتى ديوان الجند الذي كان موجودا سابقا فانه غير كاف ، « فقد جرت العادة عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع عليه » (٧١) ، ولكن يمكن استنتاج هذه الاعداد من خلال الحوادث والمعارك وما اشارت اليه المصادر القديمة . ففي الحرب الاولى التي خاضها المسترشد بالله ضد امير المزيديين دبيس بن صدقة عام ٥١٧هـ بلغ عدد جنده ثمانية الاف فارس وخمسة الاف راجل ولم يقتل من عسكره غير عشرين فارسا في حين بلغ عسكر دبيس عشرة الاف فارس واثنى عشر راجل(٧٢) ومع ذلك كان النصر لجيش الخليفة الذي كان اقل عددا من جيش دبيس ، ولما وصل خبر مسير دبيس والملك طغرل الى بغداد ٥١٩هـ خرج الخليفة من باب النصر في اثنى عشر الف من العساكر سوى الرجالة واهل بغداد وفرق السلاح(٧٣) . وفي سنة ٥٢٣ هـ تجمع حول دبيس في الحلة عشرة الاف فارس وكان قد وصل في ثلثمائة فارس فلما سمع الخليفة بذلك « جند الاجناد وحشد الحشود التي ارهبت دبيس ودفعته الى طلب الصلح والرضى عدة مرات (٧٤) » مما يدل على ان الخليفة جمع من الجند ما يربو على عشرة الاف التي كانت بيد دبيس . ولما قصد زنكي ودبيس بغداد عام ٥٢٦هـ(٧٥) في سبعة الاف فارس غضب المسترشد بالله وعاد مسرعا من خانقين وعبر الجانب الغربي في الفي فارس وعند عقرقوف كادت الهزيمة ان تحل بعسكر الخليفة لولا ثباته وشجاعته . قال صاحب المنتظم انه لما كسرت ميسرة عسكر الخليفة ، كشف المسترشد بالله الطرحة ولبس البردة وجذب السيف وحمل العسكر فانهزم عسكر دبيس وزنكي وقتل من القوم مقتلة عظيمة(٧٦) .

وفي عام ٥٢٧ سار المسترشد بالله بجيش تعداده ثلاثين الف مقاتل قاصدا الموصل وقد حاصرها مدة ثلاثة اشهر(٧٧) وفي السنة التالية بلغ عسكره خمسة عشر الف فارس سوى ما كان غائبا عن

ألبلد(٧٨) . وفي اخر حروبه عام ٥٢٩هـ خرج الخليفة في سبعة الاف فارس واستخلف في بغداد جمال الدولة اقبال الخادم في ثلاثين الاف فارس ، وكان السلطان مسعود في همذان في نحو الف وخمسمائة فارس ، ولما صالح اصحاب الاطراف بلغ جنده خمسة عشر الف فارس (٧٩) في حين ان كثيرا من جند الخليفة قد تسلل الى عسكر السلطان حتى بقي في خمسة الاف حارب بها الى ان هزم .

مراكـز الجنـد

ومما يلحق بالجيش العباسي ما يعرف بالثكنات والثغور وهي مراكز الاخبار ومحلات اجتماعهم واقامتهم وتكون عادة في مراكز المدن ذات المواقع الستراتيجية ومنها ما تختط قريبا من الصحراء ليحتمي بها الجند ومنها ما تكون واقعة على البحر او الانهار حيث تتجمع فيها سفن الاسطول وجنده ، ومن اشهر هذه المراكز :

بغداد وقد اختطها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور عام ١٤٥هـ واتخذها مركزا لجنده وجعلها حاضرة بني العباس(٨٠) . والمركز الاخر سامراء وقد بناها المعتصم عام ٢٢١ هـ لتكون مركزا لجنده الاتراك الذين ضاق بهم اهل بغداد ذرعا وقد بلغت اوج الاتساع والكبر زمن المتوكل(٨١) .

وهناك ايضا مركز اخر يقع الى الشمال من سامراء هو مركز تكريت وقد عرفت بقلعتها الحصينة ، ومن هذه المراكز الرافعة وقد اسسها المهدي عام ١٥٥هـ على طراز بغداد فكانت تستوعب من الجنود والخيل عشرات الالوف وفيها طعامهم وعلفهم ، واختط الرشيد الرحبة .

ومن الثغور المهمة الاسكندرونة على ساحل بحر الروم (البحر الابيض المتوسط حاليا) وبعض هذه الثغور تمتد على هذا البحر كثغور الشام ومصر ومنها ما يقع في جزيرة العراق الى الشمال الشرقي وتسمى بالثغور الجزرية(٨٢) ، واقاموا الحصون والقلاع والاسوار حول هذه المراكز ، ففي عام ٥١٧هـ أمر المسترشد بالله اهل بغداد ببناء سور حول مدينتهم ، « فكانوا يتناوبون العمل فيه يعمل اهل كل محلة منفردين بالطبول والزمور » (٨٣) .

رواتب الجند وملابسهم

بتسلط السلاجقة على العباسيين اصبح العراق في نظرهم اقليما من اقاليم دولتهم فقد ضمن طغرلبك ٤٥١هـ واسط بمائتي الف دينار ، وضمن بغداد ٤٥٢هـ باربعمائة الف دينار لمدة ثلاث سنوات(٨٤) وحددوا للخلفاء العباسيين اقطاعاتمقررة ياخذون دخلها وهي مع ذلك عرضة للمصادرة في بعض الاحيان ، من ذلك مصادرة اقطاعات الخليفة القائم بامر الله زمن طغرلبك (٨٥) . وايراد هذه الاقطاعيات تشكل دخل الخليفة او خزينته الخاصة .

استمر هذا الوضع الى ان ظهرت بوادر الاستقلال زمن المسترشد بالله الذي رغب في تكوين الجيش لتحقيق ما اراد وقد وجد في قلة المال العائق الاول ، لذلك فرض ضرائب على الناس واقتصد في النفقات لسد حاجات ومتطلبات الجند . فقد ذكر ابن الجوزي(٨٦) : « ان المسترشد بالله بعث الى بهروز الخادم على القلعة يقول له انت مقيم ومعك الاموال فينبغي ان تعطينا شيئا منها نفرقه على العسكر » . مما يدل على ان المسترشد بالله قد كون نواة لجيشه من الجند المرتزقة وكان يوزع عليهم المال والسلاح تساعده في توفير هذه المبالغ اتفاقاته مع بعض الأمراء والقواد والطامعين طلاب السلطة الذين امتلكوا الاقطاعيات الواسعة التي اقطعتها عليهم السلطنة السلجوقية ، فقد جرت العادة وقت ذاك ان يقطع كبار الجند والامراء والوزراء اقطاعيات كرواتب(٨٧) .

ومن غير المؤكد ان يكون للخليفة المسترشد بالله ديوان يسجل فيه اسماء الجند ولكن الثابت ان كثيرا من جند الخليفة وخاصة المرتزقة والعيارين والشطار(٨٨) العوام كانوا يجندون لقاء مبالغ توزع عليهم وبعضهم يندفع رغبة في الحصول على الانهاب والاسلاب والغنائم ، ولا ننسى ان بعض الجند من اهل بغداد انخرطوا في جيش المسترشد بالله بدافع كرههم وحقدهم على السلاجقة فلولاهم لما ساءت الاحوال الاقتصادية وفرضت الضرائب واهدرت هيبة الخلافة العباسية .

اما الزي الذي يرتديه الجند فقد كان لكل صنف منهم شارات وعلامات يتميزون بها وكذلك للقادة والنقباء والعرفاء لباس يتميزون به عن الجند وهو لا يتعدى قباء يصل الى الركبتين يعلوه سروال ثم جلباب فضفاض يتدلى الى العقبين ويشده في الوسط حزام من الحرير وفوق كل ذلك الجبة او القباء(٨٩) . ويرتدي الفرسان الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور اما الرجالة فيرتدون الاقبية قصيرة متدلية الى ما تحت الركبة وسراويل ونعالا تشبه النعال الذي نعرفه في الوقت الحاضر(٩٠) .

وعلى العموم يتميز لباس الجند بالاقبية والقلانس السوداء ويرفعون امام الويتهم الاعلام السوداء(٩١) .

اسلحـة الجنـد

استعمل العباسيون اسلحة مختلفة منها اليدوية التي تضرب الهدف مسافة قريبة ومنها الرشيقة التي تضرب مسافة بعيدة(٩٢) . ولذلك فهي تختلف باختلاف المحاربين ، فالفرسان يحملون الرماح والسيوف والهراوات ويلبسون الدروع وهم نواة الجيش الرئيس ويخضعون لتدريب خاص ، اما الرجالة فيحملون النشاب والسهام والتراس التي يستعمل للوقاية من نشاب العدو (٩٣) ، ويمكن تقسيم اسلحة الجند العباسي الى قسمين :

١ ـ اسلحـة الدفـاع :

وتشمل الدروع والتروس وقد ذكر ابن الجوزي ان عسكر الخليفة قد لبس التراس وتنكب السلاح كما دخل عسكر السلطان محمود دار الخلافة من باب النوبى(٩٤) . وفي اسلحة الدفاع الاخرى الاسلاك الشائكة وقد سموها بالحسك الشائك وهي كالالغام ترمى في الارض لتعطب حوافر الخيل واقدام العدو المغير(٩٥) ، واستعملوا حفر الخنادق وانشاء الحصون وبناء الاسوار حول مراكز المدن وثكنات الجند واقاموا الكمائن في المعارك ومن ذلك الكمين الذي اقامه المسترشد بالله في حربه مع دبيس ٥١٧ وجعل في هذا الكمين خمسمائة فارس(٩٦) .

٢ ـ اسلحـة القتـال :

واهم هذه الاسلحة السيوف التي يحملها الفرسان والخيالة ، فقد كان المستر بالله نفسه يحمل السيف وهو يقود العساكر في كل المعارك التي خاضها فقد خرج مرة « راكبا بسوداه وبيده سيف مسلول هزم بن عدوه » (٩٧) واستعمل الفرسان الرماح ، اما المشاة فقد استعملوا القوس والنشاب ففي حرب السلطان محمود ٥٢١ دخل عسكر الخليفة وخاصة المشاة منهم ولبس رماة النشاب التروس (٩٨) .

مصـــادر ومراجــع البحـــث

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٥هـ ، ص٢٧٢ .
(٢) مسكويه : تجارب الامم وتعاقب الهمم، نشر احدروز ١٩١٤، جـ٢ . ص٨٧ .
(٣) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدراباد الدكن ١٣٥٨هـ ، جـ٧ . ص٩٨ .
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي . ط٣ القاهـرة ١٩٥٥ . جـ٣ . ص٢٨٣ .
(٥) البساسيري وكنيته ابو الحرث وهو مملوك تركي من مماليك بهاءالدولة الديلمي وينسب الى بسامدنية بفارس ، ثار زمن الخليفة القائم بامر الله سنة ٤٤٨هـ ، واستولى على بغداد سنة ٤٥٠هـ بمساعدة المصريين اولا وعامة اهل بغداد ثانيـــا وبســـط نفـــوذه الى واســـط والبصـرة . وبعـــد ســـنة من دخوله بغـــداد هــرب عنهـــا بعد ان طاردته جيوش السلطان السلجوقي طغرلبك وقد قتل وهو في طريقه الى الشام . ـ الشيخ الخضري : تاريخ الامم الاسلامية « الدولة العباسية » مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٣ ص ٣٢٢–٣٢٤ .
(٦) حسين امين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، مطبعة الارشاد ١٩٦٥ . ص٦٩ .
(٧) ابن الجوزي : جـ٨ . ص١٨١ .
(٨) حسين امين : ص١٤١ .
(٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، دار الطباعة بالقاهرة ١٢٩٠ ، جـ١ . ص٢٤٢ .
(١٠) ابن الجوزي : جـ٩ . ص٢٣٧ .
ابن الاثير : الكامل ، جـ١٠ . ص٢٣٥ .
(١١) حسين امين : ص١٤٥ .
(١٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣ ، ص٥٤–٥٥ .
(١٣) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص١٣٣ .
(١٤) المصدر السابق نفسه .
(١٥) نعمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية ، مطبعة اسعد ببغداد ١٩٥٦ ، ص ٢٢٩ .
(١٦) حسن ابراهيم : جـ٣ . ص٢٨٥ .
(١٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ... المطبعة الباسلية ١٩٤٧ . ق٥ . جـ٣ . ص١٠٣٩ .
(١٨) ابن الاثير : الباهر ، ص٢٦ .
(١٩) ابن الاثير : الكامل ، جـ١٠ . ص٢٣١ .
(٢٠) ابن خلدون : العبر جـ٣ . ص١٠٣٩ .
ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣١ .
(٢١) ابن الاثير : الباهر . ص٢٦ .
(٢٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣٢ .
(٢٣) المصدر السابق نفسه جـ١٠ . ص٣٥٩ .
(٢٤) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص ٤٥ .
(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ١١ . ص١٠ .
(٢٦) ابن الاثير : الباهر ص٤٩ .
(٢٧) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص٣٥ .
(٢٨) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٢٢ .
(٢٩) نعمان ثابت : ص١٨٣ .
(٣٠) ابن الاثير : الباهر ص٢٦ .
(٣١) نعمان ثابت : ص١٤٣ .
(٣٢) المصدر نفسه : ص١٤٧ .
(٣٣) حسن ابراهيم : جـ٣ . ص٢٨٤ .
(٣٤) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص٤٤ .
(٣٥) حسين امين : ص١٤١ .
(٣٦) ابن الاثير : الباهر ص٢٦ .
(٣٧) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣١–٢٣٢ .
(٣٨) ابن خلدون : العبر جـ٣ . ص١٠٣٩ .
(٣٩) عبدالجبار ناجي : الامارة المزيدية ، دار الطباعةالحديثة. البصرة ١٩٧٠ . ص١٨٦ .
(٤٠) نعمان ثابت : ص ٢٢٦ .
(٤١) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣٢ .
(٤٢) المصدر نفسه .
(٤٣) ابن الاثير : الباهر ص٣٠ .
ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٤٣ .
(٤٤) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص٢٩ .
(٤٥) المصدر نفسه : جـ١٠ . ص٣٠ .
(٤٦) المصدر نفسه : جـ١٠ . ص٣٥ .
(٤٧) المصدر نفسه : جـ١٠ . ص٤٤ .
(٤٨) سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٣٨ . ص٣٧٧ .
(٤٩) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص١٣٢ .
(٥٠) المصدر السابق نفسه .
(٥١) ابن الاثير : الباهر ص٢٦ .
(٥٢) ابن خلدون : العبر جـ٢ . ص١٠٨٣ .
(٥٣) ابن الاثير : الباهر ص ٤٦ .
(٥٤) ابن الاثير : الكامل جـ١١ . ص١٠ .
(٥٥) ابن خلدون : العبر جـ٣ . ص١٠٣٩ .
ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣١ .
(٥٦) نعمان ثابت : ص١٩٧–٢١٤ .
(٥٧) ابن الاثير : الكامل جـ١١ . ص١١ .
(٥٨) ابن الاثير : الباهر ص٤٧ .
(٥٩) ابن خلدون : العبر جـ٣ . ص١٠٣٩ .
(٦٠) ناجي : ص١٧٩–١٨٠ .
(٦١) ابن الجوزي : جـ٨ . ص٦٠ .
(٦٢) ابن الاثير : الباهر ص٣٠ .
(٦٣) المصدر نفسه : ص٤٨ .
(٦٤) ابن الاثير : الكامل جـ٩ . ص١٢٧ .
(٦٥) ابن خلدون : جـ٣ . ص١٠٣٩ .
(٦٦) العماد الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعـــة الموسوعات بمصر ١٩٠٠ . ص
(٦٧) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ، دار الهلال بالقاهرة ١٩٥٨ ، جـ٤ . ص١٨١ .
(٦٨) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص١٥ .
(٦٩) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣١ .
(٧٠) ابن الاثير : الباهر ص٤٩ .
(٧١) القلقشندي : صبح الاعشى من صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣ . جـ٤ . ص١٦ .
(٧٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣٢ .
ابن الاثير : الباهر ص٢٦ .
(٧٣) ابن الاثير : الكامل جـ١ . ص٢٣٨ .
(٧٤) المصدر نفسه جـ٧ . ص٢٤٩ .

(٧٥) ابن العديم : زبدة تاريخ حلب ، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١ . جـ٢ . ص٢٥١ .
(٧٦) ابن الجوزي : جـ١ . ص٢٤٩ .
(٧٧) ابن الاثير : الكامل . جـ١١ . ص٢ .
(٧٨) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص٣٥ .
(٧٩) ابن الاثير : الكامل جـ١١ . ص١٠ .
(٨٠) نعمان ثابت : ص٣٣ .
(٨١) المصدر نفسه . ص٣٥ .
(٨٢) المصدر نفسه ص ٤٩ .
(٨٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣٥ .
(٨٤) فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق في القرن الخامس الهجري ، دار الاديب ١٩٦٩ .
(٨٥) المصدر السابق نفسه .
(٨٦) ابن الجوزي جـ١٠ . ص٣٥ .
(٨٧) العماد الاصفهاني : ص٥٥ .
(٨٨) « العيارون والشطار : طوائف شعبية عاطلة امتهنت النهب واللصوصية ، انتظمت فيما بعد في حركات معارضة اسلوبها الفوضى وطابعها السرية ، وكان ظهورهم اول مرة أبان فتنة الامين والمأمون في أواخر القرن الثاني الهجري » رسالتي في الماجستير « الرأي العام في القرن الثالث الهجري » ١٩٧٣ .
(٨٩) حسن ابراهيم : جـ٣ . ص٢٨٣ .
(٩٠) نعمان ثابت : ص ١٩٣ .
(٩١) القلانس مفردها قلنسوة وهي « طاقية توضع تحت العمامة » .
دوزي : المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ترجمة اكرم فاضل ، دار الحرية ١٩٧١ . ص٢٩٦ .
(٩٢) نعمان ثابت : ص ١٧١ .
(٩٣) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص١٥٠ .
(٩٤) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص٢ .
(٩٥) صبحي الصالح : النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٥ . ص٥٠٢ .
(٩٦) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ . ص٢٣١ .
(٩٧) ابن الاثير : الباهر ص٤٦ .
(٩٨) ابن الجوزي : جـ١٠ . ص٢ .

***